كيف تعرّف اللّغويون العرب على فردينان دو سوسير؟

الخـــثــــيـر داودي
المركز الجامعي ميلة

ملخّص:

تهدف هذه الورقة البحثية تبيان كيفية تعرّف اللغويين العرب على محاضرات فردينان دي سوسير أول مرّة، وكيف تلقّت الثقافة العربية كتابه؟ وذلك بالوقوف عند أربع محطات مهمّات في هذا البحث، بدأً بإبراهيم أنيس باعتباره أول باحث عربي طبّق البنيوية في مجال علم الأصوات، ثم وقفة مع أهم اللغويين السبّاقين الذين أشاروا إلى دي سوسير قبل التراجم الخمس، ثم وقفة سريعة مع محنة ترجمة مصطلح "لسانيات"، إشكالياته ومراحله، ثم وقفة متأنية مع ترجمة كتاب دي سوسير وما يتعلق به، من حيث أشهر الكتب التي تُرجمت قبله، ولماذا تأخّرت الثقافة العربية في ترجمت الكتاب بسبعين سنة من تاريخ صدوره سنة (1916).

Résumé

L’objectifs de ce document montrent comment les linguistes arabes ont connu les conférences de Ferdinand Desaussure la première fois, et comment la culture arabe a reçu son livre ? Cette prise de position à quatre missions des stations dans cette recherche, a commencé Ibrahim Anis comme le premier chercheur plat arabe structurel en phonologie, puis une pause avec des linguistes courses les plus importantes qui ont évoqué de Saussure avant les cinqs traductions, puis une pause liens avec le sort de traduire le terme "linguistique" problèmes et période puis une pause attention à la traduction du livre de Saussure et ses contenus, en termes de mois de livres qui ont été traduits avant, et pourquoi la culture arabe retard dans la traduction de ce livre pendent soicent-dix ans des la date d'émission Année (1916).

معلوم أن تاريخ اللسانيات الحديث يبدأ بمحاضرات العالم السويسري فردينان دي سوسير، الذي عاش ما بين (1857-1913)، "وإذا أردنا أن نقرّب شخصية فردينان دي سوسير إلى القارئ العربي المهتم: فإنه سيبويه اللسانيات في أروبا،لم ينشر كتابه بنفسه، وإنما كان أَمَالي دوّنها تلامذته الذين حضروا دروسه، وبادر اثنان منهم إلى نشرها بعد موته، في كتاب سموه:"دروس في اللسانيات العامة"، ونشأت حول محاضراته حركة لغوية عارمة فكانت كالحركة النقدية التي نشأت حول أبي تمام والمتنبي، فتعددت الشروح والتفسيرات والمقارنات."(1)

ولقد تميزت محاضراته التي نشرها الاثنان كل من "شارل بالي"، و"ألبير سيشهاي"، بأوّليات ريادية في مجال علم اللغة، حيث انتهى به الارتياد في مجال هذا العلم البكر، ومن أبرزها أنه فصل علم اللغة عن كل العلوم والاختصاصات التي لا تخضع للفحص العلمي الدقيق، وجعله علما مستقلا بمنهجه يدعى بالمنهج السانكروني الآني، غايته أنه يدرس اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها.

والسؤال كما هو في العنوان شديد العارضة، كيف تعرّف اللّغويون العرب على فردينان دي سوسير؟ ولماذا تأخرت الثقافة العربية نسبيا في الاهتمام بدي سوسير؟

أجدني مضطرا أن أبدأ في منبر هذه الكلمة إلى الحديث عن إبراهيم أنيس، الذي عاش ما بين (1906-1978)، والذي يراه الباحث القدير حماسة عبد اللطيف، أنّه: "الرّائد الأول في الدرس اللغوي الحديث، وكان عليه العبء الأكبر -لسبقه وتقدّمه- في نقل الدراسة اللغوية إلى الآفاق الحديثة التي ظهرت في أوربا في مطالع القرن العشرين فكان العين التي رأت، والأذن التي سمعت، والعقل الذي وعى، ثم القلم الذي كتب (...) فكان بحق علامة فاصلة في تاريخ الدرس اللغوي العربي، بحيث يمكّن دارسي اللغة أن يؤرّخوا به إذا اختلف الدرس بعده عنه قبله، سواء أكان ذلك في علم اللغة العام أم في علم اللغة العربية الخاص."(2) لا شكّ أن من يعرف الدكتور أنيس، يرى أن هذا التعديل من حماسة لنظيره أنيس قليل فيه، لأن أنيس ظهر في فترة كانت فيها الأمة العربية أدعى ما تكون إلى الرثاء والإشفاق في المجال اللغوي، فاستطاع هو بأستاذيته رغم كل الظروف والملابسات أن يحمل أعباء القضية اللغوية وينهض بها باجتهاداته التي أنضى فيها رواحل ذهنه.

معلوم أن كتاب "الأصوات اللغوية" لإبراهيم أنيس، الذي نشره سنة (1941)، هو أوّل كتاب في العالم العربي تبنى المناهج اللسانية الغربية (البنيوية)، والذي يعد بحق أول كتاب عربي حاول تطبيق النظرة البنيوية في وصف أصوات اللغة العربية."(3) والشيء العجيب في هذا الكتاب الرائد أنه لم يشر فيه إلى فردينان دي سوسير لا من قريب ولا من بعيد، والمطّلع على كتابه "الأصوات"، وفي باب المراجع الأفرنجية يجد أنه اعتمد على أربعة عشرة مرجعا أجنبيا لكنه لم يعتمد على كتاب سوسير، باعتبار أن البنيوية جاءت معه، وأن كتاب "الأصوات"، لأنيس أول كتاب عربي، حاول فيه تطبيق البنيوية، وإلا فلا مسوّغ لهذا العتاب العلمي على أنيس.

ولكي نكون على ذُكرٍ؛ أن ترجمة كتاب دي سوسير إلى الإنجليزية تأخرت إلى سنة (1959)، وبحكم التكوين العلمي لأنيس في إتقان اللغات الأجنبية، كان باللغة الإنجليزية، لأنه كان من أوائل المبتعثين المصريين إلى إنجلترا سنة (1933)، وعلى أرجح الظن أنه كان من قسم الإنجليزية، ولأن معظم المبتعثين كانوا من أقسام اللغة الإنجليزية، ثم إنه مصري ومصر كانت تابعة للإستعمار الإنجليزي، فتاريخيا يستحيل أن يطّلع أنيس على النسخة الإنجليزية، لعل هذا هو العذر العلمي في عدم إشارته له والإعتماد عليه.

أما إذا جئنا إلى الرأي الحديث العام، وكما كان في نظر عبد السلام المسدّي من قبل، أن محمّد مندور، يعدّ أول من أشار إلى فكر سوسير على الإطلاق؛ في كتابه "النقد المنهجي عند العرب."

وذلك عندما عرّف بأنطوان مايبه اللساني الفرنسي المعاصر لدي سوسير والذي كانت بينهما خلافات لسانية، فقد عاش "مايبه" ما بين (1866-1936)، وكتب في فقه اللغة ما ينيف على أربعين مؤلفا.

ويرى محمد مندور مترجم كتاب "منهج البحث في اللغة والأدب"، للانسون ومايبه، الذي ترجمه سنة (1946)، "أن الدراسات اللغوية في الغرب قد تطوّرت وازداد الاهتمام باللهجات الحديثة التي نسميها عامية ونظن أنها لا تطرد على قاعدة ولا تستند إلى نحو، ومنهج الأستاذ مايبه خليق أن يبدد من العقول هذا الوهم، وأن يفتح للدراسات مجالات لم تكن تخطر لنا ببال، لأننا لا تزال أبحاثنا تقوم على المنطق المجرد، أو التأكيدات المسرفة، ولا تزال مسألة الصحة والخطأ محور مجادلتنا اللغوية."(4)

ومعلوم أن "أنطوان مايبه" اللساني الفرنسي هو أشهر طلاب دي سوسير، قام بتوجيه أبحاثه في اتجاه تحليل الثقافات والمجتمعات في شكلها اللغوي، كما عاب على أستاذه إلحاحه الشديد على الجانب المنهجي على حساب الشخص المتكلم والكاتب"، (5) ولعل هذا الخلاف والرفض من "مايبه" قد ساهم بطريقة أو بأخرى في نشر والتعريف بفكر سوسير عند الغرب، من حيث لا يحب، لكن سلطة الكتاب العلمية كانت أكبر من ما يثيره بعض اللاسوسوريين، أو بالأحرى المخالفين، أمثال: جرامون، وجيسبرسن، وماروزو، وحتى بلومفيلد في أمريكا.

أما سوسير عند العرب، فيرى الدكتور نعمان بوقرة في رسالة "منهج البحث في اللغة" لمايبه، التي ترجمها محمد مندور، "أن ترجمة هذه الرسالة في هذا التاريخ هو تهيئة ذهنية لمرحلة أخرى أكثر جدية تمثل آراء ومحاضرات دي سوسير". (6)

وهذه الرسالة المترجمة في سنة (1946) عن مايبه تقع في ستّ وثلاثين صفحة، استعمل فيها مصطلح "علم اللسان"، لا شك أنها كانت أوّل لبنة في الخطاب اللساني التأسيسي عند العرب.

ومن كبار الباحثين اللغويين العرب الذين أشاروا إلى دي سوسير وفكره، "تمام حسان"، الذي كان له سبقه التاريخي كذلك، في إشاراته إلى محاضرات دي سوسير؛ في كتابه "مناهج البحث في اللغة"، الذي نشره عام (1955)، أول مرة، الذي استطاع به أن يضفي طابع العلمية في الكتابات اللسانية العربية منذ أن خرج للناس، ويعتبر بحق هذا الكتاب صيدلية المناهج والأفكار اللغوية العربية.

فالناظر في كتاب "مناهج البحث في اللغة"، يجد أن "تمام" قد أستعان بكتاب دي سوسير ونهل منه، ولا سيما أن نجد اسم كتابه في قائمة المراجع الأجنبية، ولقد أشار "تمام" إلى دي سوسير في فصل "استقلال المنهج اللغوي"، وجعل آراءه عمدة في هذا الباب، بحيث يرى "أن القرن التاسع عشر اصطبغ بالصبغة التاريخية، بينما اصطبغ القرن العشرين بالصبغة الوصفية، وأن سوسير هو الذي خلّص الدراسات اللغوية من النفوذ الخارجي، بمعنى أنه نادى باستقلالية النظام اللغوي، وكما أن بلومفيلد كان تابعا لمذهب وايس السلوكي، كان سوسير تابعا لمذهب دور كايم الإجتماعي التركيبي، فيرى أولهما: أن اللغة مجموعة من ردود الأفعال المشروطة، ويراها الثاني: بنية مركبة يمكن أن توصف باستعمال كلمتي رأسي وأفقي، عندما يتعرض لشرح diachronique وsynchronique"(7) وإلى غير ذلك من الإشارات في بعض فصول الكتاب.

ومن أوائل اللغويين العرب السبّاقين كذلك؛ الذين أشاروا وعرّفوا بسوسير قبل التراجم الخمس لكتابه، عبد السلام المسدي، في كتابه "الأسلوب والأسلوبية"، الذي نشره أول مرة سنة (1977)، وذلك في فصل "كشف المصطلحات"، وفي أول كلمة لهذا الفصل وهي كلمة "آنية"synchronie عندما عرّفها تعريفا وافيا، أشار إلى سوسير فقال: "قد طغى المنهج الزماني في الدراسات اللسانية طيلة القرن التاسع عشر حتى جاء فردينان دي سوسير فأبرز أهمية الدراسات الآنية للظاهرة اللغوية، وشبه المنهجين بطريقتين تصفان لعبة الشطرنج (...) والمنهجان يرسمان بيانيا بمحورين متقاطعين أحدهما أفقي ويرمز إلى الصيرورة الزمانية بحيث أنه مجموعة من النقاط المتعاقبة مثلما أن التاريخ مجموع أزمنة متلاحقة، والثاني محور عمودي ويشير إلى الوقوف من محور الزمن على نقطة معينة أو حيّز محدود."(8)، وهذا من فكر سوسير، وكذلك أشار له في ترجمته وتعريفه لمصطلح "الدال والمدلول"، وكما أعطى له ترجمة موجزة في تسعة أسطر في فصل تراجم الأعلام.

ومن أبرز السبّاقين النقّاد الذين أشاروا أو عرّفوا بفردينان دي سوسير، زكريا إبراهيم في كتابه "أضواء على

البنيوية"، الذي نشره سنة (1978)، وذلك من خلال"تناول أهم أقطاب البنيوية بالعرض المتقصي لآرائهم وأعمالهم، وهو كتاب عن البنيويين في الدرجة الأولى كان القارىء العربي في حاجة شديدة إليه."(9)

إذن؛ هؤلاء الرجال الأربعة، وهم: ناقدان ولسانيان كان لهم فضل السبق في التعريف بسوسير، ثم إن كتبهم متداولة بكثرة: محمد مندور في كتابه، "النقد المنهجي عند العرب"، والذي نشره سنة (1946)، ثم تمام حسان في كتابه "مناهج البحث في اللغة"، الذي نشره عام (1955)، ثم عبد السلام المسدي في كتابه "الأسلوب والأسلوبية" الذي نشره سنة (1977)، ثم زكريا إبراهيم في كتابه "أضواء على البنيوية"، الذي نشره سنة (1978)، وهم على الترتيب التاريخي، وقد يكون هناك من أشار قبل هؤلاء إما تلميحا أو تصريحا، لكن في حدود اطّلاعنا المتواضع أن الذين سبق ذكرهم كان لهم فضل السبق اطلاعا وتعريفا على غيرهم المعاصرين لهم.

ولأن التعصّب العلمي لا ينفع في الموضوعات التي هي أدخل في التاريخ، فلا يفوتني تنبيه الدكتور مالك يوسف المطلبي الـمُراجع لترجمة يوئيل يوسف عزيز، لمحاضرات سوسير، سنة 1985، بحيث يقول:"إن المحاضرات في علم اللغة العام لفرديناد دي سوسير، ترجمت على نحو أو آخر، من خلال الـمَعنِيّين بالدراسات اللغوية والبنيوية وبحوثهم، منذ منتصف هذا القرن، وصارت أفكار سوسير منتشرة، تؤلف على نحو ما، كتابا مترجما."(10)

ومن الكتب التي ذكرها، والتي تضمنت بعض أفكار سوسير، ما تضمنه كتاب محمود السعران، "علم اللغة" الذي نشره (1970)، وكذلك مقال لمحمود فهمي حجازي "أصول البنيوية في علم اللغة، والدراسات الأثنولوجية"، الذي نشره سنة (1972)، وما تضمنه مؤلف نهاد الموسى "نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث"، الذي نشره (1980).

أما إذا جئنا إلى محنة ترجمة مصطلح لسانيات وإشكاليته؛ فهو وليد عدّة مراحل وملابسات، وقبل إفراز هذا المصطلح كانت "الفيلولوجيا هي الأصل الذي تفرّع عنه علم اللغة أو اللسانيات في أوروبا. فالعبارة التي أقاها السير وليام جونز سنة (1786) أمام أعضاء الجمعية الملكية الآسيوية في كلنكا في الهند، هي الصيحة التي بدأت الزحف في حلبة علم اللغة، فكانت نشأة هذا الأخير من منطلق الفيلولوجيا فأضاف علم اللغة للفيلولوجيا فكرتين وهما: الوصف والمعاصرة، بعدما كان يتحلّى بالقدم والمقارنة فقط."(11) فسنة (1786) تمثّل حدث لساني وذلك باكتشاف اللغة السنسكرتية وعلاقتها التركيبية ببعض اللغات كاللاتنية والإغريقية على يد "السير وليام جونز".

وباعتبار أن مصر كانت هي منارة العالم العربي والإسلامي؛ فكانت هي محك التجارب ونقطة الاتصالات وفي جميع الاختصاصات، "فقبل أن يعرف لغوينا العرب المصريين، اللسانيات، عرفوا الفيلولوجيا الغربية، إذ أدخل المستشرقون الألمان نمط التفكير الفيلولوجي إلى البلاد العربية، وشكلت بحوثهم إطارا مرجعيا لجملة من البحوث والدراسات اللغوية العربية، ونأخذ على سبيل المثال "فقه اللغة" لعلي عبد الواحد وافي، يمثل أنموذجا لهذا التأثير، والذي نشره سنة (1937)."(12) إذًا، فترجمة المصطلح كانت تملي عليه معطيات تاريخية وأجواء علمية نافذة آنذاك، حتى ولو كانت خاطئة، أحاطت بالروّاد الأوئل خارج عن إرادتهم، منهم علي عبد الواحد وافي، في كتابه "فقه اللغة"، الذي فرض عليه تسمية كتابه بهذا المصطلح.

"والجدير بالذكر أن لغوينا في هذه المرحلة المبكرة لم يتبينوا الفرق بين مجال الفيلولوجيا بالمفهوم الغربي، وبين المفهوم العربي الذي ورثوه عن العرب القدماء الذي يعرف بفقه اللغة، والذي نجده مثلا عند ابن فارس (ت:395ه) صاحب كتاب "الصاحبي"، وقد وقع في هذا خلط، بدءً بالدكتور علي عبد الواحد وافي، حين ترجموا مصطلح

philology بـ:فقه اللغة، أما الذين جاوءا بعد هؤلاء –وليسوا كلّهم- استطاعوا أن يحددوا مجال فقه اللغة ومجال علم اللغة، أمثال محمود السعران في كتابه "علم اللغة مقدمة للقارئ العربي"، الذي نشره سنة (1962) ومحمود فهمي حجازي في كتابه "علم اللغة العربية" الذي نشره سنة (1970)."(13)

ومنهم كذلك كمال بشر في كتابه "دراسات في علم اللغة" الصادر سنة (1969)، وذلك أن الطريق قد تعبّدت قليلا والمادة قد توفرت لهم، في الإعراض عن مصطلح فقه اللغة فقط، واستخدموا علم اللغة مقابلا لمصطلح Linguistics الإنجليزي، أو Linguistiqueالفرنسي في أغلب التصانيف اللسانية المبكرة، إذا جعله د، عبد الواحد وافي، عنوانا لكتابه الثاني الذي ألفه بعد "فقه اللغة" الذي صدر سنة (1937)، وهو كتاب "علم اللغة" الذي نشره سنة (1941)، وبعد هذه التسمية جاءت تسمية علم اللسان على يد محمد مندور الذي ترجم بحث لأنطوان مايبه سنة (1946)، كما سبق ذكره، ثم ظهر مصطلح الألسنية الذي وظّفه صالح القرمادي قاصدا به علم اللهجات عندما نشر ترجمته لكتاب جان كانتينو "دروس في علم الأصوات العربية" سنة (1966)."(14)

غير أن صالح القرمادي عندما وظّف مصطلح "الألسنية" كان يقصد به علم اللهجات، ثم إنه لم يجعله عنوانا للكتاب الذي ترجمه عن "كانتينو"، بل استخدمه في المحتوى، وتجدر الإشارة، أن أول من استعمل مصطلح "الألسنية" الأب مرمرجي الدومينيكي في أبحاثه التي نشرها تحت عنوان "المعجمية العربية في ضوء الثنائية والألسنية السامية"، سنة (1937).

والشيء اللافت للإنتباه حقا من ما سبق ذكره؛ وهو أنه لا يوجد تنسيق بين الباحثين والمترجمين، حول توحيد المصطلح، وبقيت الحال هكذا في تأرجح المصطلح اللساني بين عدة مسمّيات، بِدأً من مندور، وقبله الأب مرمرجي الدومينيكي، إلى أن جاءت الندوة الدولية التونسية المسماة بـ:الألسنية واللغة العربية"، المنعقدة سنة 1978م، من 13 إلى 19 ديسمبر، ولقد حضرها أبرز اللّغويين العرب أمثال عبد السلام المسدي، وتمام حسان، وأحمد مختار عمر، ومحمود فهمي حجازي...الخ، والنتيجة كانت أن رجال هذه الندوة أجمعوا أمرهم وشركاءهم، وأصدروا المجلة الجامعة لأعمال الندوة تحت عنوان "اللسانيات واللغة العربية" بعد أن كان عنوان الندوة "الألسنية واللغة العربية". بمعنى أنهم اتفقوا على مصطلح "اللسانيات" نهائيا،(*) لكن شاءت قدرة الله سبحانه وتعالى، بعد ذلك، أنّ "مِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ." {فاطر، 32}

أما الممتثلين بعد هذه الندوة، كان منهم حمزة المزيني في السعودية، ومازن الوعر ومنذر العياشي في سوريا، ومجيد الماشطة في العراق. أما في مصر التي كان يمثلها تمام حسان بحق، فقد أمسك وذكر في كتابه "الأصول" الذي نشره سنة (1981) أنه سيحتفظ بمصطلح علم اللغة مؤقتا للتوضيح فقط،(15) لكنه في الطبعة الثانية سنة (1982) للكتاب لم يفعل. أم سنكتفي بقول القائل: "العلّ له عذرا وأنت تلوم".

أما إذا جئنا إلى أحمد مختار عمر؛ وهو من هو، فكذلك أمسك ولم يقر بالامتثال لتوصيات الندوة التونسية بحيث نشر مقال بعنوان :"المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجيّة"، في مجلة: عالم الفكر، سنة (1989)، وذكر فيه أسباب اختياره وتفضيله مصطلح "الألسنية"، على مصطلح "اللسانيات"؟ منها:"أن علم اللغة الحديث لا يختص بلغة معينة، وإنما يدرس أية لغة، (....) فمعنى الجمعية ملحوظ في وظيفة هذا العلم، ولذا يناسبه لفظ الجمع "ألسن" لا المفرد "لسان". وكذلك التصرّف في لفظ "ألسنية" أسهل من التصرف في لفظ "لسانيات" فحين نأخذ الصفة من الأول نقول: دراسات ألسنية، وحين النسبة نقول: ألسني، بإبقاء الجمع على حاله. وليس من المستساغ أن نقول "دراسات

لسانياتية"، ولا "السانياتي".(16) وإلى غير ذلك من التبريرات العلمية التي ذكرها في أسباب اختياره مصطلح "ألسنية" على مصطلح "السانيات".

أما في الجزائر، فإن الأمر يحتاج إلى تأنٍّ وتريّث ومهل، بحيث قليل ما هم من يعلم أن عبد الرحمن الحاج صالح، يعتبر أول باحث عربي درّس اللسانيات العامة في جامعة الرباط سنة (1960)، وذلك بعدما تحصّل على التبريز في اللغة العربية من جامعة بوردو بفرنسا. ويقال أنه أوّل من سمّى علم اللغة باللسانيات في عام (1969)، في العالم العربي، بحكم أنه أنشئ معهدًا كبيرًا للعلوم اللسانية والصوتية وجهزه بأحدث الأجهزة سنة (1968) وبقي يعمل إلى سنة (1983)، وأسس معه مجلّة اللسانيات، بمساعدة الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي وزير التربية آنذاك، ولست أدري أكان حاضرا هذا الرجل أم لا في هذه الندوة التونسية؟

غير أن هناك شيئا مغمورا عن عبد الرحمن الحاج صالح لم يلق البحث والتفتيش عنه حتى الآن، وهو أنه "نشر فقرات مترجمة من كتاب دي سوسير في بحث له بعنوان "مدخل إلى علم اللسان الحديث"، في مجلة "اللسانيات" التي تصدرها جامعة الجزائر، ع1، سنة 1972."(17) والذي يعضد هذا الرأي، الدكتور مالك يوسف المطلبي المُراجع لترجمة محاضرات سوسير، التي أعدّها يوئيل يوسف عزيز، وقد سبق ذكره، قال:"ذكر عبد الرحمن الحاج صالح في مجلة اللسانيات في أوائل العقد السابع، أنه يعكف على إعداد الترجمة الكاملة لمحاضرات دي سوسير في علم اللغة العام."(18) غير أن ترجمته هذه مفقودة، وغير متداولة في الساحات العلمية، ولهذا لم نشر إليه مع اللغويين الأوائل اللذين عرّفوا بفكر السوسري اللساني وترجموا عنه.

وفي رأينا؛ أن عبد الرحمن الحاج صالح أقدم على ترجمة كتاب سوسير كاملا لكن حالت بينه وبين ما يصبو إليه حوائل قاهرة، وما أكثر الحوائل في حياة الإنسان! أما الأسباب التي نراها تؤكد خبر ترجمة الحاج صالح لمحاضرات سوسير ولو جزءً يسيرا منها، فهي:

- لأنه كان يحضّر أطروحة الدكتوراه في جامعة السربون في فرنسا وكتاب سوسير متداول هناك، وهو يخدم رسالته من القريب والبعيد، وهذه الرسالة التي نال بها درجة الدكتوراه التي دامت عشر سنوات، جاءت منها النظرية الخليلية التي لها علاقة بالدراسات اللسانية المعاصرة.
- لأنه أوّل من دعى إلى البنيوية، أو المنهج البنيوي ولا معنى لهذا الأخير من دون سوسير الرائد الأول.
- لأن الرجل مختص في علوم اللسان ومتضلّع في اللغة الفرنسية، فسهل عليه أن يترجم كتاب سوسير.

هذا بإيجاز شديد عن عن عبد الرحمن الحاج صالح، أما إذا عدنا إلى قضية مصطلح اللسانيات، فإن الدراسة البيليوغرافية للدراسات الألسنية التي تتناول اللغة العربية التي قام بها أحمد مختار عمر، يرى فيها "أن مصطلح "علم اللغة"، هو أكثر الألفاظ الثلاثة شيوعا رغم محاولات الترويج لأحد المصطلحين، "اللسانيات"، و"الألسنية"، وبتحليل عناوين الكتب والأبحاث العربية في ميدان علم اللغة الحديث، رأى أنه يصل عددها إلى نحو خمسين كتابا وبحثا، وجد في: علم اللغة 25 عنوانا، أما ألسنية 10 عناوين، أما لسانيات 5 عناوين. وجاء أقل من ذلك عناوين أخرى مثل:علم اللسان –الدراسات اللغوية –البحث اللغوي."(19) وهذه الإحصائيات كانت في سنة (1989)، بمعنى أنه لم يستتبّ الأمر بعد لمصطلح لسانيات حتى هذه السنة.

وقبل أن نقف على التراجم العربية الخمس لكتاب سوسير يجدر الإشارة؛ إلى الكتب اللسانية التي ترجمها اللغويون العرب قبل كتاب دي سوسير، على سبيل المثال، نأخذ كتاب:"اللغة"، لجوزيف فندريس اللساني الفرنسي -وهو تلميذ

أنطوان مايه-، تاريخ نشره أول مرة بلغته الأصل الفرنسية كان سنة (1920)، وترجمه: محمد القصاص، وعبد الحميد الدواخلي إلى العربية، سنة (1950)، فلماذا لم يترجم هذان الرجلان كتاب سوسير الأهم على المهم وهو كتاب "اللغة"، وفي هذه السنة المبكرة؟ أم ما لهم به من علم! أم أنهم لم يتحصلوا على نسخة منه! وهذا كله بعيد في نظري، لننظر كم من الكتب التي ترجمت قبل كتاب سوسير، نجد منها:

1) - اللغة بين الفرد والمجتمع: لجسبرسن، ترجمه: عبد الرحمن أيوب، مصر، 1954.
2) - اللغة في المجتمع: للويس، ترجمه: تمام حسان، وراجعه: إبراهيم أنيس، مصر، 1959.
3) - دروس في علم الأصوات العربية: لكانتينو، ترجمه: صالح القرمادي، تونس، 1966.
4) - البنيوية: لجان بياجيه، ترجمه: عارف منيمنة وبشير أوبري، بيروت، 1971.
5) - أسس علم اللغة: ماريو باي، ترجمه: أحمد مختار عمر، ليبيا، 1972.
6) - تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن 20: لجورج مونان، ترجمه: بدر الدين القاسم، دمشق، 1972.
7) - الأثروبولوجيا البنوية: كلود ليفي ستراوس، محمد صالح، دمشق، 1977.
8) البنيوية: لجان ماري أوزياس، وآخرون، ترجمه: ميخائيل إبراهيم، دمشق، 1982."(20)

أتكون كل هذه الكتب وغيرها التي ترجمت، مما لا يتسع المقام لذكرها جميعا أهم من ترجمة كتاب سوسير الذي يعتبر دستور الدرس اللساني المعاصر، إذن؛ هناك أمر ينبغي أن يوضّح وذلك في رأيينا أن كتاب سوسير لقي تحاملا شديدا عليه ومضاضة آكلة، ولا يكون ذلك إلا من نظرائه اللذين يشاركونه المهنة. وما أحكم قول أحد علماء العرب عندما قال، وأخاله ابن رشيق القيرواني عندما قال:"إن المعاصرة حجاب"، بمعنى القرناء يحجب بعضهم بعضا، بدافع الغيرة والحسد، فإذا سئل عالم عن عالم يعاصره وينافسه صناعته، فإن ربواءً تأخذه تجفف عليه ريقه، وتضيّق عليه أنفاسه، وهذه سنة النظراء والأنداد فيما بينهم، إذن؛ من هم اللذين خمشوا وعتّموا من أهمية ما يقوله سوسير في كتابه؟ قد أشرنا إلى بعضهم بعد إحالة رقم خمسة، ولا يزال الأمر مفتوحا للبحث!!

صحيح أن حركة الترجمة كانت تواجه عقابيل وعراقيل من أهمها: "تأخّر البعثات اللسانية إلى الخارج، التي لم تعرف إلا في منتصف القرن العشرين، حينما أوفدت جامعة القاهرة (جامعة فؤاد الأول سابقا) عددا من المعيدين بها إلى كل من إنكلترا، وألمانيا، وفرنسا، للتخصص في اللسانيات العامة أو اللسانيات المقارنة وما يتبع ذلك من قيام حركة لسانية حديثة تأليفا وترجمة."(21) ولكنه لا يفسر سبب تأخر ترجمة الكتاب بسبعين سنة.

وصحيح أيضا؛ أن مصر كانت تمر بظروف صعبة سياسيا وإقتصاديا وذلك في فترة "أواخر الخمسينات فشهدت جامعاتها تضييقا كبيرا على الابتعاث إلى حد الإختناق، واستأثرت التخصصات العلمية وأقسام اللغات الأجنبية، وفي هذا المناخ نشأ جيل من الباحثين اللسانيين انقطعت بهم سبيل الاتصال بمصادر المعرفة اللسانية في الخارج."(22) فهذا يفسّر طابع البؤس والحرمان للباحث العربي في وقت الصعود، ولكن لا يقنعنا بتاتا في تأخر ترجمة كتاب سوسير بسبعين سنة تقريبا من تاريخ صدوره، فرغم حرمان الباحث اللساني العربي، فهناك العشرات من الكتب اللسانية ترجمت قبله، وهناك كتب ظهرت بعد كتابه وترجمت قبل كتابه، كرسالة مايه وهو تلميذ سوسير، وفندريس وهو تلميذ مايه، في كتابه "اللغة" ظهر سنة (1920)، وترجم سنة (1950).

لقد كانت منعرجات في تاريخ الثقافة العربية الحديثة، تعسّف فيها المترجمون الطريق عندما قصدوا النهر واستقلّوا البحر، فمهما رفعنا من قيمة هذه الكتب التي ترجمت قبل كتاب سوسير في مدّ حبل التواصل بين الحضارة العربية

الإسلامية، والحضارة الغربية، فإن كتاب هذا الأخير، أهم وأخطر بكل ما تحمل هاتان الكلمتان من معاني التفضيل والزيادة، وسوف نرى بعد قليل أنّ هذا التأخر الفادح في الترجمة لكتاب سوسير الأصل أثّر سلبا في استيعاب الثقافة العربية للّسانيات.

أما إذا عدنا إلى معارف اللغويين العرب اللسانية قبل أول ترجمة لكتاب دي سوسير له في أواسط سنة (1984)، فقد "انعقدت صلة الجامعة المصرية بالدرس اللساني الحديث منذ مطالع الأربعينيات. فقد اتّصل المبتعثون الأوائل بجون روبرت فيرث{1890-1960} الذي كان أستاذا للسانيات العامة في جامعة لندن ما بين (1944-1960)، وعلى يد هذا العالم وتلامذته في مصر بدأ التيار اللّساني الأساسي. يمده رافد من اللسانيات الفرنسية ممثلة في أنطوان مابيه، وجوزيف فندرس، ثم اللسانيات الأمريكية على يد المبعوثين العائدين من أمريكا في الستينيات، ومعظمهم من أقسام اللغة الإنجليزية في الجامعات المصرية، أما اللسانيات الروسية وأروبا الشرقية لم يكن لها صدى."(23) هكذا كان تراسل الفكر اللساني بين العرب والغرب، على ما له وعليه في هذه الفترة.

وكل الذي سبق ذكره مقدمات ومداخل لنستطيع أن ننفذ إلى الحقيقة ونرسم الخارطة اللسانية، ومهما يكن فلقد تعرّف اللغويون العرب على فردينان دي سوسير في وقت متأخر جدا، من خلال التراجم الخمس له في بداية العقد الثامن، مقارنة بالثقافات الأجنبية الأخرى فقد كانت أسبق من العرب وكما هو معروف أن محاضراته نشرت بعد وفاته بثلاث سنوات في (1916)، بحيث ترجم كتابه "محاضرات في اللسانيات العامة" إلى اليابانية في عام (1928)، وإلى الألمانية في عام (1931)، وإلى الروسية في عام (1933)، وإلى الإسبانية في عام (1945)، أما الإنجليزية فتأخر ظهور الترجمة فيها إلى (1959)، وهي الترجمة الوحيدة المعتمدة، وإلى البولونية عام (1961)، ثم نقل إلى اللغة الإيطالية عام (1967)."(24)

في حين تأخرت ترجمة الكتاب إلى العربية لتظهر تقريبا بعد سبعين عاما من صدور الكتاب في خمس ترجمات، فهي فجوة رقمية هائلة، تثبت هم نحن العرب الذين تأخروا عن غيرهم!؟ وكانت أول ترجمة تاريخيا الترجمة اللبنانية، وعنوانها: محاضرات في الألسنية العامة، دي سوسير ترجمة د.مجيد النصر، ويوسف غازي في أواسط عام (1984). ثم صدرت ثلاث ترجمات في عام واحد هو (1985)، وهي الترجمة المصرية عن النسخة الإنجليزية لأحمد نعيم الكراعين وعنوانها:"فصول في علم اللغة العام"، والترجمة التونسية التي كانت من النسخة الفرنسية الأصل، لمحمد الشاوش، ومحمد عجينة، وصالح القرمادي: الدار العربية للكتاب (1985)، وعنوانها:"دروس في الألسنية العامة"، أما الترجمة الرابعة فقد كانت عن الإنجليزية، ليوئيل يوسف عزيز، ومراجعة يوسف المطلبي، بعنوان:علم اللغة العام، وهي ترجمة عراقية سنة (1985). أما الترجمة الخامسة وهي ترجمة مغربية لعبد القادر قنيني، ومراجعة: أحمد حبيبي، وعنوانها: محاضرات في علم اللسان العام، صدرت عام (1987)."(25) لقد تأخر العرب عن الركب في ترجمة الكتاب لظروفهم في جميع مجالات الحياة، وأقهر ظرف خضوع بعض البلدان العربية لتبعية الإستعمار الذي مزّق وحدة العرب والمسلمينّ، فسادت فيه الفوضى والتشويش التي ظهرت مخلّفاتها على بعض الأعمال اللسانية المبكرة، مثلا في قضية توحيد المصطلح اللساني الذي لقي عنتا كبيرا.

ولقد خضعت هذه الترجمات الخمسة لعدة مراجعات من قبل باحثين مهتمين بالقضية اللسانية ومن أشهرهم ثلاثة: -

مراجعة حمزة بن قبلان المزيني، تحت عنوان: ثلاث ترجمات لمحاضرات دي سوسير.

- مراجعة عز الدين مجدوب، تحت عنوان: ثلاث ترجمات لكتاب فردينان دي سوسير.

- أما مراجعة عبد السلام المسدّي، كانت تحت عنوان: فردينان دي سوسير والثقافة العربية، وهي مراجعة لجميع التراجم الخمس التي ظهرت.

ولقد عدّد هؤلاء اللسانيون المراجعون المحاسن والمآخذ على هذه التراجم، وخلاصة الخلاصات التي رآها حافظ اسماعيلي علوي في تحليليه للتراجم والمراجعات من قبل الباحثين العرب، أنه "لم تصل أي ترجمة من الترجمات إلى المستوى الكمال، ولعل إجماع الباحثين على تفرد الترجمة التونيسية، إنما يرجع بالأساس إلى المجهود الذي بذل فيها قياسا إلى الترجمات الأخرى، ومع ذلك فإنها لم تبلغ الغاية."(26)

وإن كانت الترجمة لكتاب هو أدخل في العلم المضبوط، عصيّة على المترجم، وخاصة من جهة المصطلحات التي تعتبر المفاتيح والوسائط لفهم المقصود، فترجمة المصطلح اللساني العلمي ليست بالأمر الهيّن فلا تعني البحث عن المعادل اللغوي أو البديل الاشتقاقي أو المقارب التأثيلي أو غير ذلك، فترجمة المصطلح خاصة في العلم المظبوط يجب أن تحمل حمولته العلمية ومقاصده الفنيّة.

ومهما يكن في هذه التراجم، تعتبر تجارب لسانية تعريفية وتمهيدية رائدة ترسم لوحة التلقي والدرس في أسمى معاني الحوار المنضبط لا تفريط ولا شطط، فهي جهود فردية خالصة ليس لها دعما من أيّ مؤسسة ولو بشيء رمزي، كأن توضع ببليوغرافيا لهذه الترجمات لتفادي التكرار، ليتسنى للباحث في حقل اللسانيات في باب الترجمة أن يضيف ويصحح لا أن يعيد ويكرر، وكما يفسّر هذا طابع الحرمان للباحث العربي في أبسط مساعدة مؤساساتية يحظى بها. وهذا ما يبرر أسباب التقصير فإنها مبادرات فردية متعبة، سواء كانوا هؤلاء المترجمين لمحاضرات دي سوسير بعيدين أو قريبين، فإن أعمالهم جميعا تستحق التقدير والتماس الأعذار لأصحابها فإنها كانت محاولات منهم جادّة لم يبخلوا فيها على الثقافة العربية لتتحاور مع الحضارة الغربية لسانيا.

ولو ترجم كتاب فردينان دي سوسير على الأقل في تاريخ الذي ترجم فيه كتاب "اللغة" لجوزيف فندريس، عندما نقله: محمد القصاص، وعبد الحميد الدواخلي إلى العربية، ونشراه سنة (1950)، لكانت جل أرجل الباحثين العرب في ميدان اللغة والأدب قد وضعت في الرّكاب، في الوقت المناسب!؟ ولو ترجم هذا الكتاب هذه التراجم الخمس العربية على قصورها في الوقت الذي ترجم فيه إلى اليابانية سنة (1928) كأول ترجمة في العالم، لكانت هذه الترجمة بالنسبة للثقافة العربية لحظة أرخميدس.

عندها لا يتحيّف جيل البحاثة اللسانين الأوائل الطريق الموصل إلى شاطئ الأمان، ولاختصرت المسافات ونيلت المقاصد والمهمات في وقتها الموعود مع التاريخ، فلما تأخرت الثقافة العربية في ترجمة الكتاب سبعين سنة -الذي خرج من الهدوء العلمي الذي عاشه هذا الرجل- دفعنا ضريبة هذا التأخر بأن حدث لنا إشكالا في تلقّي اللسانيات واعتبارها "ترفا فكريا"(27)، كما يرى الأستاذ الفاضل حافظ اسماعيلي علوي.

مرجع الإحالات:

1)- انظر:البحث عن فردينان دو سوسير، لميشال أريفيه، ترجمة: أ،د: محمد خير البقاعي، مراجعة: نادر سراج، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1/ 2009، ص:09.

2) - فتنة النّص-بحوث ودراسات نصيّة-:د، محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب، القاهرة، (د، ط)، (د، ت)، ص:223.

3)- انظر:نشأة الدرس اللساني العربي الحديث:د، فاطمة الهاشمي بكوش، ايتراك للنشر، القاهرة، ط1، 2004، ص:18.

4)- انظر:النقد المنهجي عند العرب: د، محمد مندور، درا نهضة، مصر، 1996، ص:393، 394.

5)- انظر:مدخل إلى اللسانيات: لبرتيل مالبرج، ترجمة: السيد عبد الظاهر، مرجعة: صبرى التهامي، ط2010/1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص:341.

6)- انظر: الدراسات اللسانية في المملكة العربية السعودية:د، نعمان عبد الحميد بوقرة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط1، 2011، ص:30.

7)- انظر:مناهج البحث اللغوي:د، تمام حسان،(د، ط)، (د، ت)، (د، د)، ص:28، 29.

8)- انظر:الأسلوب والأسلوبية:د، عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، (ط1، كانت سنة 1977) ط3، (د، ت) طرابلس، ليبيا، ص:130، 131.

9)- انظر:نظرية البنائيّة في النقد الأدبي:د، صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1998، ص:10.

10)- علم اللغة العام، لفردينان دي سوسير، ترجمة:يوئيل يوسف عزيز، مراجعة النص العربي:د، مالك يوسف المطلبي، دار آفاق عربية، بغداد، 1985، ص:13، 14.

11)- انظر: الأصول-دراسة إبستيمولوجيّة للفكر اللّغوي عند العرب–:د، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 2000، ص: 237.

12)- انظر:انظر:نشأة الدرس اللساني العربي الحديث، ص:13

13)- انظر:المرجع نفسه، ص:13، 14.

14)- انظر: المرجع نفسه، ص: ص:31.

*)- انظر في الانترنت موقع:html.article60162/28/04/2005/http://www.alriyadh.com

15)- انظر في الهامش: الأصول-دراسة إبستيمولوجيّة للفكر اللّغوي عند العرب – النحو.فقه اللغة.البلاغة: د، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 2000، ص:237.

16)- انظر المقال:المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجيّة:د، أحمد مختار عمر، مجلة:عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، اكتوبر-نوفمبر-ديسمبر1989، ص:7، 8.

17)- انظر في الهامش: البحث عن فردينان دو سوسير، لميشال أريفيه، ترجمة: أ،د: محمد خير البقاعي، مراجعة: نادر سراج، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1/ 2009، ص:10.

18)- علم اللغة العام، لفردينان دي سوسير، ص:14.

19)- انظر في الهامش المقال:المصطلح الألسني العربي وضبط المنهجيّة:د، أحمد مختار عمر، مجلة:عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الثالث، اكتوبر-نوفمبر-ديسمبر1989، ص:6.

20)- انظر: علم اللغة:د، حاتم صالح الضّامن، مطبعة التعليم العالي، الموصل، العراق، (د، ت)، (د، ط)، ص:27، 28، 29.

21)- انظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة –دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقّي وإشكالاته-:د، حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1/ 2009، بنغازي، ليبيا، ص:195، 196، 197، 198.

22)- انظر: في اللسانيات العربية المعاصرة: د، سعد عبد العزيز مصلوح، عالم الكتب، ط1، 2004، ص: 21، 22..

23)- انظر: المرجع نفسه، ص:20.

24)- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة –دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته-:د، حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1/ 2009، بنغازي، ليبيا، ص:209.

25)- انظر في الهامش: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة –دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته-:د، حافظ إسماعيلي علوي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1/ 2009، بنغازي، ليبيا، ص:201.

26)- انظر في الهامش: المرجع نفسه، ص:ن.

27)- المرجع نفسه، ص:412.